

إضاءات نقدية (فصلية محكمة)

السنة الأولى - العدد الرابع - شتاء ١٣٩٠ ش/كانون الأول ٢٠١١م

بدر شاكر السياب وأسطورة تموز بين الأساطير

يوسف هادي بور نهزمي*

نيكتا صميمي**

الملخص

قد استخدم بعض الشعراء المعاصرين الأساطير عامة، وتموز الأسطورة البابلية خاصة في قصائدهم تعبيراً عن الانتعاش والحياة بحيث سموها بالشعراء التّموزيين. وفي صدر هذه القائمة، بدر شاكر السياب الشاعر العراقي المعاصر الذي استخدم الأساطير رموزاً في أشعاره بصورة لم يستخدمها شاعر آخر. يشير بدر بعض الأحيان إلى الرموز مباشرة، وحيناً آخر يرمز إلى بعض خصائصها كمقدمة للولوج إلى صلب الموضوع، ثم يذكر اسمها بصراحة ووضوح. وأمّا الشيء الذي يجب أن لا ننساه أبداً فهو أنّ السياب كان ناشطاً سياسياً يحاول لأجل الثورة وكان قلمه سلاحه فكان يختار أساطير تساعد على بيان أفكاره وآرائه لمواصلة الكفاح السياسي. وكانت أسطورة تموز من الأساطير التي تذكره دائماً الثورة وتطور الأوضاع السياسية وتوحي إليه الفناء لطلوع أيام بيضاء.

الكلمات الدلّيلية: بدر شاكر السياب، الأسطورة، الرمز، تمّوز، أدونيس.

**. عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية في كرج - أستاذ مساعد.

**. خريجة جامعة آزاد الإسلامية في كرج.

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. مهدي ناصري

Hadi1339@yahoo.com

تاريخ القبول: ١٤/٧/١٣٩٠ هـ. ش

تاريخ الوصول: ٢٧/٦/١٣٩٠ هـ. ش

المقدمة

«ولد بدر شاكر السياب قرب البصرة في قرية جيكور سنة ١٩٢٦م ونشأ يتيماً بسبب وفاة أمه^١. فكان يبحث في وجوه النساء عن ملامح وجه أمه. فلم تقع عيناه إلا على بسمات توحى بالرِّياء واللامبالاة والنفور ولم تستطع جدّته لأبيه تعويض الحرمان الذي كان يعاينه على الرغم من الحنان والحب اللذين غمرته بهما. من هنا سيبقى بدر شاكر السياب مشدوداً إلى أمّه بعد ولادته وستظل حية في ذاكرته على الرغم من رحيلها المبكر.» (بطرس، لاتا: ١٤ و١٥) يستفيد السياب من الكلمات التي تعبّر عن أمّه الغائبة حيث يقول:

«كَأَنَّ طِفْلاً بات يهدى قبل أن ينام
بأنَّ أمّه - التي أفأقَ منذ عام
فَلَمْ يجدها، ثمَّ حينَ لَجَّ في السَّوَالِ
قالوا له: بعد غدٍ تعود ...
لأبْدٍ أن تعود.»

(شاعر السياب، ٢٠٠٠م، ج: ١، ٤٧٥ و٤٧٦)

«طلب الشاعر المرأة لما بدأ يتفتح على الحياة، فحلم بها في اليقظة والمنام ثم جاء بدر بغداد ليكمل دراسته. ولكن بسبب انتمائه إلى الحزب الشيوعي، تحولت حياته إلى سلسلة من الصراعات مع السلطة. ففصل من عمله غير مرّة وتسكّع فقيراً في الشوارع، يطوى القلب على جرحين: جرح الفقر وجرح الهوى. ثم جاء بيروت بقصد الاستشفاء، فدخل الجامعة الأميركية في ١٨ نيسان ١٩٦٢م وكانت فكرة الموت تلح عليه وأشار التشخيص إلى مرض فسادى في الجهاز العصبي وإلى تصلب جانبي ضموري فلم يعط أدوية.» (بطرس، لاتا: ٤٣) كانت المرحلة الأخيرة من حياة بدر مرحلة الفقر والحزن حيث خيم عليه شبح الموت فأخذ ينظر إلى كل شى من خلاله حتى توفى سنة ١٩٦٤م.

١. كان في السادسة من عمره عندما ماتت أمه سنة ١٩٣٢م.

حياته الأدبية

- نستطيع أن نميّز أربع مراحل في حياة بدر وفي شعره:
١. الأولى: الرومانسية ١٩٤٣م - ١٩٤٨م.
 ٢. الثانية: الواقعية ١٩٤٩م - ١٩٥٥م.
 ٣. الثالثة: التمزجية أو الواقعية الجديدة ١٩٥٦م - ١٩٦٠م.
 ٤. الرابعة: الذاتية ١٩٦١م - ١٩٦٤م. «(علوش، ٢٠٠٠م: ت-ض)

بدر الرومانسي

أخذ بدر في هذه المرحلة يعشق النساء وأحبّ نساء كثيرات بدلاً عن عشق أمه المفقود. كما يقول:

«سأروى على مسمعيك الغداة	أحاديث سميتهنّ الهوى
وأبناء قلب غريق السراب	شقى التدانى، كئيب النوى
أصيحى.... فهذى فتاة الحقول	وهذا غرام هناك انطوى
أتدرين عن ربّة الراعيات؟	عن الريف؟ عمّا يكون الجوى؟»
ثمّ يواصل كلامه ويقول:	
«أشاهدت يا غابُ رقص الضياء	على قطرة بين أهدابها؟
ترى أهي تبكى بدمع السماء	أساها وأحزان أترابها؟
ولكنّها كلّ نور الحقول	ودفء الشذى بين أعشابها
وأفراح كل العصافير فيها	وكل الفراشات فى غابها»

(شاكرا السياب، ٢٠٠٠م، ج: ١، ١٤ و ١٥)

بدر الواقعي

في هذه المرحلة من حياته تحول إحساسه الفردى بالفاجعة إلى إحساس بفاجعة الجماعة مؤقتاً كان الموت فيما مضى، موته موت أمه فقط، أما الآن فقد أصبح الموت

عامّة موت الآخرين. نستطع أن نبين موقفه هذا من خلال قصائده: فجر السلام، حفار القبور، الأسلحة والأطفال. يشير بدر شاكر السياب في كل من هذه القصائد على اختلافها إلى أنّ مصير الإنسان ليس مصيراً فردياً منعزلاً، بل إنه جزء من المجتمع والتاريخ. حيث يقول:

« واخبيتاه! ألن أعيش بغير موت الآخرين؟
والطيبات: من الرّغيف، إلى النساء، إلى البنين
هي منّة الموتى، علىّ. فكيف أشفق بالأنام؟
فلتمطرّهم القذائف بالحديد وبالضّرام
وبما تشاء من انتقام:
من حُمياتٍ أو جذام
(المصدر نفسه: ٥٥٠)

بدر التّموّزي

كان بدر يميل في هذه المرحلة من حياته إلى استخدام الأساطير والاستفادة من الرموز في أشعاره، وكان يريد انتقال ما في ذهنه في قالب أسطوري أو قالب رمزي إلى ذهن القارئ إلى حدّ ما اتصل بالشعراء التّموزيين. لم يستعمل شاعر عربي الأسطورة والرمز كما استعملها بدر. حيث يقول في إحدى قصائده:

«تموّز هذا، أتيس^١
هذا، وهذا الربيع
يا خُبزنا يا أتيس،
أنت لنا الحبّ وأحى اليبيس.»
(المصدر نفسه: ٤٣٤)

١. أتيس يقابل تمّوز الإله البابلي عند سكان آسيا الصغرى القدماء. يحتفل بعبده في الربيع، حيث يربط تمثاله على ساق شجرة. وحين تبلغ الحمية أوجها عند أتباعه وعابديه، يجرحون أنفسهم بالسيوف والمدى حتى تسيل دماؤهم قرباناً دلالة على الخصب. (شاكراسياب، ٢٠٠٠م، ج ١: ٤٣٤)

بدر الذاتى

كان بدر فى المرحلة الأخيرة من حياته فقيراً ومحزناً. ولقد واجه قدره وأصبح يدافع عن مجرد بقائه. الموت لم يعد جولة ولا حُبّاً ولا فداءً ... وأصبحت الحياة فى نظره موتاً فحسب. كما يقول:

«أهكذا السنون تذهبُ؟

أهكذا الحياة تنضبُ؟

أحسّ أنى أذوبُ، أتعبُ،

أموت كالشجر.»

(المصدر نفسه: ١٤٨)

الأساطير فى شعر السياب

أ. أسطورة عشتار

عشتار^١ هى إلهة الخصب أو الأمّ الأسطورية وهى عاشقة لتموز، الأسطورة البابلية التى تعتبر رمزاً لإعادة الحياة إلى الأرض. يتحدث الشاعر عن هذه الأسطورة فى إحدى قصائده تحت عنوان «أنشودة المطر» حيث يقول:

«عيناك غابتا نخيل ساعة السّحر،

أو شرفتنا راح ينأى عنهما القمر

عيناك حين تبسمان تورق الكروم

وترقص الأضواء ... كالأقمار فى نهر

يرجّه المجذاف وهناً ساعة السّحر

كأنما تنبض فى غوريهما، النجوم ...»

(المصدر نفسه: ٤٧٤)

١. ايشتار أو عيشتر: Ishtar، وأما فى سورية وفلسطين فتذهب هذه الكلمة: عسترته Astarte وعشترت Ashtarath. (ساندرز، ١٣٨٧ش: ٢٥٥)

لم يذكر الشاعر فيها اسم الإلهة مباشرة ولكن الصفات المذكورة هي الصفات التي تختصّ بهذه الإلهة. يبدو في بداية الأمر أنّ الشاعر يصف حبيبته وعشيقته عندما يذكر هذه الأوصاف الظاهرية ولكنّه عندما يتقدم في وصفه يفهم القارئ بأنه يتحدث عن أسطورة عشتار في قالب الحبيبة، لأنّ خصائص هذه السيدة الأسطورية هي إعادة الانتعاش والخصب إلى الأرض ونرى «الانبعاث الأسطوري في القصيدة عندما تبتسم إلهة الخصب. حيث يقول: عيناك حين تبسمان تورق الكروم.» (حلاوي، ١٩٩٤م: ٤٦) وكأنّ هذه الأسطورة هي وطن الشاعر والشاعر يريد إعادة الخصب والحياة إلى وطنه.

ب- أسطورة سربروس

«سربروس هو الأسطورة اليونانية. وهو الكلب الذي يحرس مملكة الموت في الأساطير اليونانية، حيث يقوم عرش «برسفون»^١ آلهة الربيع بعد أن اختطفها إله الموت وقد صوّره دانتي^٢ في الكوميديا الإلهية، حارساً ومعذباً للأرواح الخاطئة.» (داود، ١٩٩٢م: ٢٨٨)

وأما بدر شاكر السياب فيشير إلى هذه الأسطورة في قصيدته سربروس في بابل ويقول:

«ليعو، سربروس في الدروب

في بابل الحزينة المهدمه

ويملاً الفضاء زمزمه،

يمزق الصغار بالنيوب، يقضم العظام

ويشرب القلوب...»

(شاعر السياب، ٢٠٠٠م، ج ١: ٤٨٢)

١. پرسفونی Persephone: في الميثولوجيا اليونانية، ابنة كبيرة لإلهة زيوس Zeus. اختطفها بلوتو

وحملها إلى العالم السفلي. (البلبكي، ١٩٩٢م: ٩٩)

٢. Dante (١٢٦٥م-١٣٢١م) كبير شعراء إيطاليا وأهم آثاره «الكوميديا الإلهية» وهي ملحمة يدور

موضوعها حول رحلة خيالية. (المصدر نفسه: ١٨٥)

فى الحقيقة يشير بدر هنا إلى حاكم العراق. سربروس هو حاكم مدينة الشاعر وبابل هنا رمز للعراق. تُعدّ أسطورة سربروس رمزا للفقر والفناء والغوغائية التى تنشر الدمار فى العراق، بلاد الشاعر، بحيث يشير إلى الكلب الذى يحرس مملكة الموت، كأن الربيع والحياة مقصوران على يد هذا الكلب. ينتظر الشاعر فى هذه القصيدة المعجزة أو الحركة التى تقوم بنجاة بلاده من الموت والفناء ثم يشير غير مباشرة إلى الأسطورة اليونانية «برسفون» إله الربيع وهى التى تنجى العالم من الموت.

ج. أسطورة السندباد أو ديسيوس

تعتبر أسطورة السندباد رمزا لمن رحل من دياره ويتمنى العودة بالانتعاش والحياة والأمل. يستخدم الشاعر هذه الأسطورة فى قصيدة تحت عنوان مدينة السندباد ويقول فيها:

«جوعان فى القبر بلاغذاء

عريان فى الثلج بلارداء

صرختُ فى الشتاء:

أفضّ يا مطر

مضاجع العظام والثلوج والهباء

مضاجع الحَجَر،

وأنبتِ البذورَ لتفتّح الزهر

وأحرقِ البيادرَ العقيمَ بالبروق.»

(المصدر نفسه: ٤٦٣)

كأنّ الشاعر فى بداية أمره يقوم بوصف مدينة سندباد التى كانت تعاني من الفقر والمجاعة كما يأمر سندباد بالسفر حتى يحصل على ما يتمناه بالدخول فى الأخطار ويعتقد بأنّ المفروض على الإنسان أن يرحل الديار وأن يجتاز البحار. ثم يواصل كلامه ويخاطب سندباد ويقول له:

«يا سند باد أما تعود؟»

كاد الشباب يزول، تنطفئ الزنابق في الخدود

فمتى تعود؟»

(المصدر نفسه: ٢٣١)

فعلى حسب رأى بدر شاكر السياب أسطورة سندباد هي رمز للذى رحل من دياره

ويتمنى العودة بالانتعاش والحياة والأمل.

د. أسطورة أورفيوس

ومن الأسماء الأسطورية التي استخدمها الشاعر في هذه القصيدة هما:

«ايكارا» و«أورفيوس» وقد ذكر الشاعر في حديثه الأوّل عن شبّاك وفيقة وهي

رفيقته. حيث يقول:

«ايكار يمّسح بالشمس

ريشات النسّر وينطلق،

إيكار تُلقّفه الأفق

ورماه إلى اللّجج الرمس»

(المصدر نفسه: ١١٧)

وتبدو الصورة بعيدة الصلة بما حولها إلا أن شبّاك وفيقة هو نفسه ايكار وأنه قد نأى

عن الأعين المنتظرة ثم سقط فوارته اللّجج أي ضاع من دنياه إلى الأبد وأما أورفيوس

فإنه يمثله لأنه شق طريقه بالحنين والغناء وفتح لأنعامه مغالقي الفناء. السياب وقف عند

دار جده في جيكور فرأى عالم الفناء نفسه مع أنه ظلّ طوال حياته يمنح جيكور الضياء

وليكسوها الرواء بشعره.

هـ. أسطورة تموز

إنّ قصيدة «أنشودة المطر» كانت فاتحة عهد جديد من الاتكاء على رمز «تموز»

١. ايكار ابن ديدالوس، جنح نفسه هو وأبوه بأجنحة من شمع وطارا من تيه مينوس في كريت، ولكن

ايكار اقترب كثيراً من الشمس فذاب جناحاه وسقط في البحر ومات غريقاً. (عباس، ١٩٧٨م:

أو «أدونيس»، إذ إن القصيدة لاتعدو أن تكون في سياقها ترجمة لتلك الأسطورة دون تصريح برمز الخصب. كان لبدر شاكر نوع من الإحجام عن استعمال هذه الأسطورة» (عباس، ١٩٧٨م: ٣٠٣). كما وصلنا إلى هذه النتيجة في الصفحات السالفة أنه يشير إلى بعض خصائص أسطورة تموز كمقدمة ثم يذكر اسمها بصراحة و وضوح. وبعض الأحيان يشير إلى بعث الأمة وتحرير بلده العراق. فجيكور بعض الأحيان هو تموز أو رمز للاخضرار أو رمز للحياة. كما يقول:

«وجيكور خضراء

مسّ الأصيل

ذرى النخل فيها

بشمس حزينه.

ودربى إليها كومض البروق،

بدا و اختفى ثم عاد الضياء

فأذكاه حتى أنار المدينة»

(شاكر السياب، ٢٠٠٠م، ج: ١، ٤١٨)

ومن خلالها يشير إلى بعض صفات أسطورة «تموز» كما يشير إلى قصة موت تموز على يد الخنزير البرى حينما يقول في بداية القصيدة:

«ناب الخنزير يشقّ يدي

ويغوص لظاه إلى كبدى ... »

(المصدر نفسه: ٤١٠)

ثم يواصل كلامه ويقول:

النور سيورق والنور.

جيكور ستولد من جرحى،

من غصّة موتى، من نارى،

سيفيضى البيدرُ بالقمح ...»

(المصدر نفسه: ٤١١)

و. المسيح وتمّوز

ينظر بدر شاكر السياب إلى «المسيح» و«تموز» كأسطورتين مقتولتين تمنحان الوعي والحياة للناس بعد موتهما. كأن المسيح يبدو صورة أخرى من تمّوز الذى يقتل فيبعث. وتُعتبر قصيدة «المسيح بعد الصلب» هى إحدى قصائده التى تجسّد هذا القبول بالتضحية بل هذا الإيمان بالبعث من خلال التضحية حيث يقول:

«متّ كى يؤكل الخبزُ باسمى،

لكى يزرعونى مع الموسم،

كم حياة سَاحيا: ففى كلّ حفرة

صرتُ مستقبلا، صرتُ بذرة،

صرتُ جيلا من الناس: ففى كل قلب دمي

قطرة منه أو بعض قطرة»

(المصدر نفسه: ٤٥٩)

ز. أدونيس أو تموز

إنّ أدونيس أو تمّوز عند السياب هو إله الخير ولكنّه عندما أصيب باليأس من

الظروف السائدة على مجتمعه يخاطب أدونيس ويقول:

«أهذا أدونيس، هذا الحوَاء؟

وهذا الشحوبُ، وهذا الجفاف؟

أهذا أدونيس؟ أين الضياء؟

وأين القطف؟»

(المصدر نفسه: ٤٦٥ و ٤٦٦)

كأن الخيبة قد سيطرت على الشاعر إلى حدّ لا يرى الخصب والحياة إلا سرايا. ثم

يشير إلى قتل تموز على يد الخنزير البري حيث يقول:

«تموز يموت على الأفق»

وتغور دماه مع الشفق»

(المصدر نفسه: ٣٢٨)

النتيجة

توصلنا خلال هذا المقال إلى النتائج التالية:

كان يعاني بدر شاكر السياب من الآلام الروحية وذلك بسبب فقدان أمه في السادسة من عمره. فقد لجأ إلى نساء كثيرات تعويضاً لهذا الحرمان دون أن يفوز في هذا اللجوء. إنه كان متأثراً من الأدباء الغربيين من أمثال شكسبير، ملتون، وت.س. اليوت. وفي هذه المرحلة تعرّف أكثر من قبل على مفهومي «الموت» و«الحياة».

استفاد من الأساطير لبيان أحاسيسه الداخلية ومشاكله الخارجية. ومهما نقرأ قصائد هذا الشاعر المبدع المتجدد نتعرف عليه أكثر من قبل ونطلع على همومه وآلامه وقلقاته وعلى كل ما جعله أن يكون مختلفاً من الشعراء الآخرين دون أن يكون غافلاً عن أحوال مجتمعه قط.

إنه قال الشعر ليكون قلمه سلاحه طوال حياته. وقد كان بحكم موقعه الزمني، شديد البحث عن الرمز وكانت حاجته إلى الرمز قوية بسبب نشوئه في أزمت وتقلبات نفسية وجسمية وبسبب التغييرات العنيفة في المسرح السياسي بالعراق حينذاك. ولهذا يصلح أن يكون نموذجاً للشاعر الذي يطلب الرمز في قلق ومن يبحث عن مَهْدَى لأعصابه المستوفزة.

وفي كيفية استخدامه الأساطير تجدر الإشارة إلى أنه استخدمها بطريقتين:

الأولى: الإشارة العابرة أو الإشارة إلى بعض خصائص تلك الأسطورة دون أن يشير

إلى الأسطورة نفسها.

الثانية: الإشارة المباشرة بالأساطير حيث يذكر اسم الأسطورة وذلك كما أسلفناها.

المصادر والمراجع

- بطرس، انطونيوس. لاتا. بدر شاكر السياب، شاعر الوجع. لانا.
البعليكي، منير. ١٩٩٢م. معجم أعلام المورد. بيروت: دارالعلم للملثين.
حلاوي، يوسف. ١٩٩٤م. الأسطورة في الشعر العربي المعاصر. بيروت: دار الآداب.
داود، أنس. ١٩٩٢م. الأسطورة في الشعر العربي الحديث. بيروت: دارالمعارف.
ساندرز، ن.ك. ١٣٧٨ش. بهشت ودوزخ در اساطير بين النهرين. تهران: انتشارات كاروان.
شاكر السياب، بدر. ٢٠٠٠م. الأعمال الشعرية الكاملة. بيروت: دارالعودة.
عباس، إحسان. ١٩٧٨م. اتجاهات الشعر العربي المعاصر. الكويت: مجموعة العالم المعرفة.
عباس، إحسان. ١٩٧٨م. بدر شاكر السياب، دراسة في حياته وشعره. بيروت: دارالثقافة.